سمو وإباء في شعر الماجدات من النساء
" ليلى العفيفة نموذجاً "

علي عبدالرحمن الفيتوري

كلية الآداب – جامعة مصراتة

المقدمة

إن إعادة النظر في موروثنا الأدبي القديم، ومحاولة تلمّس القيم النبيلة فيه، وإظهارها للعيان، مهمة ينبغي أن ينبري لها المتخصصون في هذا الشأن، وذلك لربط الحاضر بالماضي ربطاً وجدانياً؛ لأن ذلك يساعد على استنهاض الهمم، والاعتداد بالذات اعتداداً متوازناً يسمو عن الانكسار والخنوع ، ولا يغلو إلى الطيش والشطط؛ فتلك التجارب الإنسانية التي نقف عليها في هذا الموروث الثري، تستحق منّا انتشالها من غيابات النسيان وإبرازها صافية نقية بعيدة عمّا يكدّر صفوها – كونها من حقبة تراءت لبعض الدراسين أنها فترة بداوة وجهل وضلال - فقد نقف عند ومضات إنسانية في أشعار أهل الجاهلية تشرئب إليها الأعناق إعجاباً وفخراً .

وحيث إنَّ النموذج في هذا العمل متخذ من نساء العرب في الجاهلية، تلك النساء اللاتي زفرت نفوسهنَّ بأشعار حرّى صادقة، تنمّ عن قيم إنسانية نبيلة، تتوق إليها النفوس العالية في كل مكان وزمان، وتعانقها المشاعر الإنسانية التي تحتفظ بطهرها وعفَّتها؛ فإن الإطلالة على شبه الجزيرة العربية، وبيان شيء من تلك الحياة الاجتماعية والسياسية، وتأثر الشاعرة بذلك من لوازم هذا العمل، فقد نشأتِ الشاعرة ليلى بنت لُكيز بن مرّة بن أسد ، من ربيعة بن نزار[1]، في قبيلة عظيمة اتسمت خلال تاريخها الطويل بسلطان مرهوب في الجاهلية، ومكانة سامقة بين القبائل العربية[2]. وأشهر مواطنهم ما بين الجزيرة الفراتية والعراق، تلك البقعة التي كانت تشتمل على ديار ربيعة، وديار مضر، وديار بكر [3]، والتنقّل وهجر الأوطان معروف في تلك الفترة، وذلك للصراعات الناشبة بين القبائل، ولتقلبات الطبيعة[4].

والناظر في تلك الصراعات القبلية، يلحظ أن من أهم أسبابها وقوع تلك القبائل بين قطبين متنافرين، هما: الفرس والروم، فقد كان المناذرة في العراق يستمدون نفوذهم من الفرس، ويبسطون هذا النفوذ على القبائل الشمالية في شبه الجزيرة العربية، وكان الغساسنة يستمدون نفوذهم من الرومان وحلفائهم البيزنطيين [5].

وقد نشأت إمارة المناذرة في كنف الدولة الساسانية التي رأت "أن تستفيد من استقرار العرب على حدودهم الغربية، ليقوموا بحماية هذه الحدود ضد من يعتدي عليهم من الروم، أو عرب البادية"[6]،

([1]) ينظر : شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع وترتيب : بشير يموت، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1934م ، ج1، ص32، وينظر: الأعلام ، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ، ط15، 2002م، ج5، ص149.

([2]) ينظر: شعر تغلب في الجاهلية، جمع وتحقيق أيمن محمد ميدان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ، ط1، 1995، ص15.

([3])ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية بيروت ، ط1، 1976م، ص262.

([4]) ينظر: المرجع نفسه ، ص260.

([5]) ينظر: في أدب ما قبل الإسلام، د. محمد عثمان علي، دار الأوزاعي، بيروت، ط2، 1983م ، ص29-29.

([6]) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه د. يحيى الجبوري ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ، ط6، 1993م، ص33.

وقامت إمارة الغساسنة بعد تغلبها على الضجاعمة "فقربهم الرومان منهم، وجعلوهم درعاً واقياً لهم ولحدودهم ضدّ غارات الفرس والمناذرة"[1].

وكانت تلك الحروب التي تنشب بين القبائل العربية نتيجة أبعادٍ سياسية، من غايتها التفرقة، التي من شأنها إضعاف القوة، وسهولة السيطرة، وديمومة الخضوع والانكسار أمام أولئك الملوك وسادتهم " إنّ القارئ الناقد للتاريخ الجاهلي، يقع في كل خلاف كان بين القبائل العربية في تلك الفترة على أصابع ملوك الحيرة، لا يكاد يفلت من ذلك يوم واحد من أيام العرب قبل الإسلام، فالقبائل تلتقي وتفترق في هذا السبيل والدماء تجري، والموت يبتلع الناس ابتلاعاً ، كل ذلك تدفع إليه سياسة التفرقة التي كان يُركِّبها إذ ذاك هؤلاء الملوك "[2].

وقد كان ملوك العجم لا يتوانون في التنكيل بعمّالهم من العرب، بل استباحة ذمارهم متى تطلّبت غاياتهم ذلك، وفي نهاية النُّعمان بن المنذر شاهد على بطشهم وتجبّرهم، حيث كانت نهايته "في سجن كسرى الثاني، الذي نكّل به ورماه تحت أرجل الفيلة فحطمته"[3].

ولم يكتف كسرى بن هرمز ملك الفرس بهذا، بل ألحّ في طلب الحرقة هند بنت النعمان بن المنذر للاقتران بها فأبت ذلك [4]، واستجارت بالحجيجة الشيبانية فأجارتها قائلة [5]:

إنّي حُجَيْجَة وَائلٍ وَبِوائـــــــــــــلٍ ∴ يَنْجُو الطَّرِيدُ بِشِطَّبَةٍ وَحِصَانِ

وما ليلى العفيفة ببعيد ممّا أصاب الحرقة من أولئك الملوك، فقد كانت ليلى من أجمل بنات جنسها، خطبها كثير من سراة العرب، فرفضت الاقتران بهم؛ لأنها تفضّل البقاء في قومها، وتميل إلى ابن عمّها البرّاق بن روحان، لكنّ أباها رفض ذلك، فأطاعته فأطلق عليها لقب (العفيفة) [6].

وعندما وصل خبرها إلى ملك الفرس وقتئذ، عن طريق من يحفّزه إليها من حاشيته، أجابه الملك قائلاً :" ما عسى أن نبلغ منها، والبدوية تفضّل الموت على أن يغشاها عجمي"[7]. ولكنّ الرغبة في النيل من العفيفة كانت سبباً في أسرها وحملها إلى فارس، لإرغامها على الزواج، فامتنعت عليه [8] غير مكترثة بإغراءاته متجلّدةً أمام العذابات والويلات والبلاء، فقالت في هذه المحنة متمنية أن يرى ابن عمّها البرّاق ما تلاقي من البلاء والعناء:[9] [من الرمل]

لَيْتَ للبرّاقِ عَيْنــــــــــاً فَتَرى ∴ ما ألاقي مِنْ بَلاءٍ وَعَنَـــــــا

يَا كُليباً وعقيلاً إخْـــــــوَتي ∴ يَا جُنيداً أَسعِدوني بِالبُكَـــا

عُذِّبَتْ أخْتُكــــــم يَا وَيْلَكُـــم ∴ بِعذابِ النُّكرْ صُبْحاً وَمَسَا

غَلِّلُونِي، قَيَّدُونِــــــــــي ضَرَبُوا ∴ مَلْمَسَ العِفَّةِ مِنِّي بالعَصَــــا

([1]) المرجع نفسه، ص35.

([2]) تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، دار الكتاب العربية، بيروت، (بدون ط ت) ص31.

([3]) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص 34.

([4]) ينظر: شعراء النصرانية، شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (بدون ط. ت)، ج7، ص20-29.

([5]) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص11.

([6]) ينظر: معجم الشعراء الجاهليين د. عزيزة فوال بابيتي، دار صارد، بيروت، ط1، 1998م، ص313.

([7]) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص32.

([8]) ينظر: شعراء النصرانية، ج2، ص148، وينظر: الأعلام للزركلي ج5، ص249.

([9]) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص32-33. وينظر: شعراء النصرانية ج2، ص149 (بتصرف).

يَكْذِبُ الأَعْجَمُ مَا يَقْرَبُنِــــــــي	∴	وَمَعِي بَعْض حَشَاشَاتِ الحَيَـــال
فَأَنا كَارِهَـــــــــــةٌ بَغْيكـــــــــــمُ	∴	وَيَقينُ الموتِ شيءٌ يُرْتَجــــى
فَاصْطِبارٌ أَوْ عَزَاءٌ حَسَـــــــــنٌ	∴	كلُ نَصْرٍ بَعْدَ ضُرٍّ يُرْتَجَـــــى
أَصْبَحتْ لَيْلَى تُغَلُّ كفّهَــــــــا	∴	مِثْل تَغْلِيلِ المُلُوكِ العُظَما
وتُقَيَّد وتُكبَّل جَهْـــــــــــــــرةً	∴	وتُطَالَب بِقبيحاتِ الخَنَـــــــــا
قُلْ لِعَدْنَانَ هُدِيتُمْ شَمِّرُوا	∴	لِبَنِي مَبْغُوضٍ تَشْمِير الوفا
يَا بَنِي تَغْلِبَ سِيْرُوا وانْصُروا	∴	وَذَرُوا الغَفْلَة عَنْكُمْ والكَـــــــرَى
واحْذَرُوا العَارَ عَلَى أَعْقابِكم	∴	وَعَلَيْكُم مَا بَقِيْتُم فـــــي الدُّنا

لعلّ الناظر في هذه القصيدة، المدرك للزمن الذي يفصل بيننا وبينها، يتلهّف لمعرفة سرّ هذا التأثير في أعماقنا، وعند إعمال العقل في ذلك يلحظ المتأمل أن الزفرات التي تعبّر عن الطبائع والغرائز الإنسانية الخالدة تكون مؤثرة في كل نفس لأنها صورتها التي تعلو على البيئات جميعاً [1].

وجودة الأدب هي مقياس حظه من القبول والإعجاب والخلود، ويتأتى ذلك بحسن المعاني، وتخير ما يتصل منها بالموضوع، وما يناسبه في دقة مُحكمة وترتيب حسن تنسجم فيه الألفاظ مع معانيها، وتتراءى فيه الصور مكتملة غير منقوصة ولا شاردة، "وعلى أي حال فإن أجود البيان نثره ونظمه ما صدر عن الطبع وجاء عفو القريحة من غير تكلّف ولا استكراه ولا إغراب "[2].

وعفو القريحة وعدم التكلّف واضح في قصيدة ليلى العفيفة، حيث بدأت القصيدة بهذا الأسلوب الإنشائي الرائع، الذي يضع السامع أمام مرارة اليأس الذي تعانيه الشاعرة في أسرها، ذاك اليأس، الذي نراه في لفظة "ليت" التي تفيد التمني وهو طلب المحبوب الذي لا طمع فيه، أو "طلب الأمر المستحيل حدوثه، أو المتعذر حصوله عادة "[3] ولكنّ الناظر في هذه القصيدة، يكاد أن يكون على يقين بأن العفيفة تتعلّق بالأمل المتعذر حصوله، فالقصيدة في مضمونها استغاثة بابن عمّها البرّاق، الذي تتمنّى أن يعلم مصابها في الأسر، وأغلب الظن عندي، أن المقصود بالعين هنا ليست العين المبصرة، بل العين " الذي تبعثه لتجسُّس الخبر"[4].

وتؤكد الاستغاثة في القصيدة تلك الصرخات بأسلوب النداء في قولها: "يا كليباً وعقيلاً إخوتي ... يا جنيداً ......"[5] فالمنادى إذا نودي ليخلّص من شدّة، أو يعين على مشقّة، فنداؤه استغاثة [6].

ومما يستحق الوقوف عليه في هذه القصيدة، هذا الأسلوب، أسلوب التهكم الخفيف في ظاهره، واللاذع في حقيقته، الذي نجده في بيتها الذي تستغيث فيه بأعزّ العرب (كليب) [7] ومن ذكرت معه ، طالبةً في

([1]) ينظر: أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1953، ص104.

([2]) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة حجازي بالقاهرة، ط1، 1949م، ص5.

([3]) النحو المصفى، محمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، (بدون ط. ت) ص285.

([4]) كتاب العين للفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، (بدون ط.ت) ج2، ص255.

([5]) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص32.

([6]) ينظر: شرح الكافية الشافية، محمد عبد الله الطائي، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، (بدون ت) ج3، ص1334.

([7]) ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، بدون ط، 1423ه، ج1، ص228.

نهاية البيت أَنْ يسعدها هؤلاءِ المشاهير من العرب، بالبكاء، فما أرادت بهذا الأسلوب إلاّ استنهاض الغيورين من العرب بل كل من رأى في نفسه عزّة كليب وعقيل وجنيد، ولا يُقبل منهم أبداً السكوت عن الهوان والذل، والتعبير عن رفضه بما يعبر به الضعفاء من بكاء وعويل ، ولاسيما وهم الأقربون، فرابطة الدّم تحتّم عليهم تفريج كرب العفيفة فهم الإخوة الذين يمسّهم ما يمس العفيفة من الأذى، وفي فطنة العفيفة، ودقّة تعبيرها، لم تُدخل البرّاق في الإخوة، بل مازال البرّاق الرّجل المختار من بين رجال العالمين، وبه افتتحت القصيدة، وله كانت الرسالة الأولى، وهي تؤكد في رسالتها الثانية، بعد خروجها من أسلوب التهكم المذكور، الذي وُضّف في هذه القصيدة أجمل توضيف، ما ينبغي من الإخوة الأقربين، وهي تستعرض عذاب النّكر صباحاً ومساء في أسر كسرى، وتنذرهم بالهلاك إنْ رضخت نفوسهم واستكانت، وأختهم في أسر كسرى تعاني شرّ العذاب، لأن "الويل يُقال لمن وقع في الهلكة" (1).

وتصل نفس العفيفة في أقصى درجات الضّجر، وهي تزفر بحرقتها التي تدمي كل قلب لم تدنّسه الدناءة، ولم تمسّه الفسولة، ولم يخامره الخنا، وهي بذلك لم تدّخر شيئاً يمكن أن يستنهض عفيفاً ذلك بقولها (2):

غَلّلُونِي قَيَّدُونِي ضَرَبُـــــــــــوا   ∴   مَلْمَسَ العِفّةِ مِنّي بِالعَصَـــــــــــا

"وقولها "ملمس العفّة "من الكلام الذي لا يفنى التعجّب من بلاغته ومن حسن التعبير فيه"(3).

فأيُّ صورة أكثر إيلاماً من هذا التصوير؟ وأي تعبير يمكن أن يعبر عن ذلِّ وهوان تعانيه حرّة عفيفة على يد أعجمي لم تدرك نفسه وقع فعله على النفوس الأبية؟ وقد تنبّهت الأسيرة إلى أمر عظيم وهو أنّ القائم بهذه الدناءة لا يُستغرب منه الكذب على أسيرته، فاحتاطت لذلك بقولها (4):

يَكْذِبُ الأَعْجَمُ مَا يَقْرَبُنِــــــــــي   ∴   وَمَعِي بَعْضُ حَشَاشَاتِ الحَيَا

تتجلّى في هذا البيت روائع السموّ والأنفة والإباء في نفس المرأة العربية، أمام سطوة العجم وملكهم المرهوب آنذاك، كما يتجلّى قالب القصيدة المحاط بثنائية، مُحكمة، الأول منها رغبة السموّ، والآخر رهبة الانكسار، فالعفيفة ترى في سموّها سموّ الأُمّة أمام غطرسة العجم وظلمهم وبغيهم وابتزازهم الخاصّة من العرب، واستخدام العامة منهم، وترى أيضاً في انكسارها انكساراً للأُمّة. فهي عندما تستغيث بعظماء الأمة لا تستغيث تشبثاً بهذه الفانية، وإنما هي تتشبت ببقاء هذه الأمة عزيزة مهابة، متهكمةً في بداية القصيدة بالسكوت على أسر امرأة عربية تعاني ويلات العذاب في سجن كسرى، مستنهضة الهمم بعد ذلك، مخبرة بأَنَفتها في الأسر، وأنها تزداد كلّما زاد الآسر في تعذيبها، وأَنَّ الطُّهر والعفّة والشمم باقيات ما دامت الروح في جسدها. بلغ توهج القريحة الذروة في هذا البيت، ووصل تحدّيها أقصى منازله، وأشبعت رغبتها بهذا السموّ، فلن يكون الانكسار من جانبها.

وقد يستغرب الناظر إلى البيت التالي، ولاسيما إذا كانت النظرة إليه عجلى غير متأنية حيث تقول العفيفة (5):

فَأَنَــــــــا كَارِهَةٌ بَغْيُكُـــــــــمُ   ∴   وَيَقِينُ المَوْتِ شَيءٌ يُرتَجَى

فهل يحتاج هذا الأسر، وهذه العذابات فيه، أن تفيد العفيفة سامعها أنها كارهة لهذا العذاب؟ وأنّ ما يُفعل بها هو ظلم وبغي؟ أم أنّ الخطاب موجّه إلى قومها الذين تستنهضهم بهذه القصيدة، بل تستنهض النبلاء

---

(1) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414ه، مادة (ويح).

(2) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص32.

(3) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربية، بيروت، (بدون ط.ت) ج3، ص46.

(4) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص32.

(5) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص32.

من العرب جميعاً، وتخبرهم أنّ سكوتهم عن إذلالها وتباطؤهم عن نصرتها قد تجاوز الحدّ، وهو بذلك بغي تكرهه العفيفة، فكل مجاوزة في الحدّ، وإفراط عن المقدار، الذي هو حدّ الشيء، بغي وتعدٍ [1]، وفي الشطر الثاني من البيت تخبر العفيفة أنّها ترتجي يقين الموت.

ويلحظ الناظر في هذا البيت ولاسيما في نهايته تغلّب الرهبة في نفس الشاعرة، فموتها في أسر العجم يسيء إلى كل عربي غيور، وهي في البيت التالي تشير إلى حقيقة كونية تحاول بها طرد اليأس الذي يكتسح تجلّدها وصبرها، وذلك في قولها [2]:

فَاصْطِبارٌ أَوْ عَزَاءٌ حَسَــــــــنٌ ∴ كُلُّ نَصْرٍ بَعْدَ ضُرٍّ يُرتَجَــــى

فالعفيفة قد مسّها الضرّ، ولا شيء يُرتجى بعد هذا الضرّ إلا النصر، وفي النصر تعافٍ من الجراحات، وسموٌ في النفس الرمز، وإلا الاصطبار والعزاء الحسن، والعزاء الحسن يكمن في ثبات العفيفة وعدم انكسارها، والناظر في هذا البيت وسابقه يلحظ تماوج الرغبة والرهبة بين أضلاعها.

وكذلك في البيتين الآتيين، حيث تجعل من القيود والأغلال التي توضع في يديها مجالاً للفخر، وفي الوقت نفسه مجالاً للألم والحرقة لما أصابها، فتقول [3] :

أَصْبَحَتْ لَيْلَى تُغَلُّ كَفَّهَا ∴ مثل تَغْلِيل المُلُوكِ العُظَمَا

وتُقَيّد وتُكَبَّل جَهْــــــــرَةً ∴ وتُطَالَب بِقَبِيحَاتِ الخَنَــــــــا

فالشبه بين ليلى العفيفة والملوك العظماء، أنَّ كليهما توضع الأغلال في يده أسيراً لعظمته وعدم الاستهانة به، والتوجس من بطشه وصولته، وهذا يدفع السّامع ممن لا يرضى إذلال العزيز، أن ينتفض لرفع الضيم، وعلوّ النفس وسموها واضح في هذا البيت، أمّا البيت التالي لهذا البيت ففيه النفس مكلومة، وتقييد الآسر للعفيفة وتكبيلها هو انتصار لنفسه الوضيعة، التي تحاول أن تنتقم ممّن أبت الاقتران به، فهو يقوم بالتقييد والتكبيل جهرةً، أي: " لم يكن بينهما ستر، وفي التنزيل ﴿**أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً**﴾[4] أي غير مستتر عنّا بشيء"[5].

ومما يزيدها كمداً أنها تُطَالَب بقبيحات الخنا، والخنا : الفُحش "وأخنى عليه في منطقه ، إذا أفحش" [6].

قال أبو دؤيب الهذلي[7]:

فَلاَ تُخْنُوا عَلَيَّ ولاَ تُشْطِّوا ∴ بِقَوْلِ الفَخْرِ إِنَّ الفَخْرَ حُوبُ

وتختتم العفيفة قصيدتها برسالتها الأخيرة التي تستنصر فيها بالعدنانيين، وتطلب تشميرهم للنصرة، وتوجّه قومها وتحذرهم مغبّة الاستكانة والخنوع فتقول[8]:

([1]) ينظر: الصّحاح الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت ، ط4، 1987م، مادة (بغى).

([2]) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص33.

([3]) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص33.

([4]) سورة النساء، من الآية (152).

([5]) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 2000م، مادة (جهر).

([6]) الصّحاح، الجوهري، مادة (خنا).

([7]) ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1948، ج1، ص98. وينظر شرح ديوان المتنبي، أبوالبقا عبدالله بن الحسين العكبري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، (بدون ط.ت) ج1، ص341.

([8]) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص33.

قُلْ لِعَدْنَانَ هُدِيْتُم شَمِّروا ∴ لِبَنِي مَبْغُوضٍ تَشْمِيرَ الوَفَا

يَا بَنِي تَغْلِبَ سِيرُوا وانْصُرُوا ∴ وَذَرُوا الغَفْلَةَ عَنْكُمْ وَالكَرَى

واحْذَرُوا العَارَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ∴ وَعَلَيْكُمْ مَا بَقِيتُمْ فِي الدُّنَا

يستوقف الناظر في هذه القصيدة ، فعل الأمر الذي يبدأ به المشهد الأخير، فهي تطلب التبليغ بقولها " قُلْ" فهل تلك العين التي تمنّت وجودها في البيت الأول من هذه القصيدة هي مدركة وجودها حقيقة؟ وأرادت بذلك تخفيف أسلوب الطلب بالتمنّي فتتجنب بذلك الأمر الجافّ، وتجنح إلى " أسلوب الطلب المقترن بما يشعر بتكريم المخاطب"[1]؟ لعل الأمر كذلك، وأغلب الظن أنه كذلك، لأن أسلوب التمنّي أكثر استمالة للسامع من أسلوب الأمر، وهي في حاجة ماسّة لمن يُخرِج هذه الزفرات الملتهبة من الأسر إلى أفئدة المعنيين بها، فتفعل فعلها المنشود.

ومن الطبيعي في مثل هذا أن يُراد إبلاغ العدنانيين جميعاً، ولكنّها قالت : قل لعدنان، وأرادت بذلك الجدّ الأول للعدنانيين، فمنه ينحدر معدّ، ومن معدّ ينحدر نزار، ومن نزار ربيعة.. [2] وفي ذلك إيحاء بضرورة النُّصرة، وإشارة إلى القرابة واللحمة، وسموّ نفس العفيفة يجعلها توظّف هذا الأمر الجلل في توطيد اللّحمة، وفيه استدعاء واستنفار للقحطانيين أيضاً، فإذا كانت النُّصرة مطلوبة من عدنان، فإنه يتحتم على قحطان نصرته، وهي بذلك تستدعي العرب جميعاً، وتؤكّد هدايتهم إلى الصواب في هذه النُّصرة، وهي لا تدّخر جهداً في استخدام الأسلوب الأمثل، الذي تهتز إليه النفس العربية الأبية، فهي تكتفي بلفظة "شمّروا " كناية عن الاستعداد للحرب، والتأهب للخروج، الذي فيه السموّ والرفعة، و"الكناية الحسنة تُكسب الكلام حلاوة وجمالاً"[3].

وفي البيت نفسه تبيّن أن المقصود بهذه الحرب هم بنو مبغوض، ولم تطلق العفيفة هذا الاسم على العجم جزافاً، وإنما أرادت بذلك إظهار ما تحمله عليهم من كرهٍ وبغض، وبالتالي كره وبغض من يواليهم، ومن لا يهبُّ لحربهم، فالمكروه "هو المبغوض المسخوط عليه وهو ضد المحبوب المرضي عنه" [4]. وكأنها أرادت بهذه اللفظة أنّ "المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض"[5].

وأكّدت العفيفة ضرورة أن يكون هذا التشمير تشمير وفاء، يأتيه الإنسان طواعية لا ينتظر به مقابلاً، فهو وفاء للأصل والفرع لا يُقبل فيه خذلان أو مَنٌّ أو تكاسل.

ويشتدّ أسلوبها – بعض الشيء – مع قومها الأقربين، فلا نجد كلمة (هديتم) أو ما يشبهها من الكلمات التي تُستعمل في تخفيف الطلب وتيسيره[6]، والتي كانت موجودة في خطابها الموجّه إلى عدنان، بل نجد العفيفة في خطابها إلى بني تغلب تستنكر عليهم الغفلة عن أبعاد هذا الأمر، وطلبت منهم أن يستيقضوا من سباتهم فإنّ الأمر جلل.

واستخدمت العفيفة في خاتمة القصيدة أسلوب التحذير وهو: "تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليجتنبه"[7] لمناسبته مضمون القصيدة، وقد جاءت بهذا الأسلوب متكاملاً حيث كانت محذرة بني تغلب،

([1]) البلاغة العربية عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق ، ط1، 1996م، ج1، ص69.

([2]) ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص57.

([3]) المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي د. محمد مصطفى صوفيه، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط1، 1984م، ص169.

([4]) تفسير ابن باديس، عبد الحميد الصنهاجي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 1995م، ص109.

([5]) تفسير الطبري تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة ، ط2، 1964م، ج10، ص47.

([6]) ينظر: البلاغة العربية ج1، ص69.

([7]) النحو الوافي، عبّاس حسن، دار المعارف، القاهرة، ط15 (بدون ت) ج4، ص126.

والمحذور هو العار الذي يلاحق النسل، وبالتالي يلاحقهم ما بقى ذكرهم جيلا بعد جيل، ولا يوجد أمر أشّد على نفوس العرب من ذلك" لأن العار من أشد المحن"[1].

من الواضح ارتباط هذه القصيدة بواقع حياة العرب القدماء، فالشاعرة لامست بكل حرف من حروفها تلك القلوب التي يراها الغريب عنها جافية قاسية، وهي في حقيقتها سهلة ليّنة، تذيبها الكلمة الصادقة والهمسة اللطيفة، وتستنهضها مشاهد الإدلال والبغي والتجبر، وسموّها دائماً مقروناً بجراحاتها.

فقيمة هذه الأعمال الفنية، تتحدد بمدى ملاءمتها لظروف الحياة[2]، وأغلب الظن أنَّ الشاعر يكون حريصاً على هذه الملاّمة لتؤدي القصيدة المنشود منها، "وقيل إن بني ربيعة لما بلغها قول ليلى هذا، استفزتهم الحميّة وخنقتهم العبرة، وساروا جميعاً لنصرة ليلى إلى أن أظفرهم الله بمطلوبهم ثم تزوجها منقذها البرّاق بن روحان"[3].

وقالت العفيفة مفتخرة بزوجها البرّاق بن روحان ومادحة له[4]:

بَرَّاقُ سَيِّدُنَا وَفَارسُ خَيْلِنَــــــا ∴ وَهْوَ المُطَاعنُ فِي مَضِيقِ الجَحْفَلِ

وعِمَادُ هَذَا الحَيّ فِي مَكْرُوهِهِ ∴ وَمُؤمَلٌ يَرْجُــــــوهُ كُلُّ مُؤمَّــــــلِ

لا يستغرب هذا الثناء والمدح من العفيفة، فسموّ نفسها يحتّم عليها الإشادة بمن ينتفضون للنخوة، وتستنهضهم المروءة، إلى بذل الأرواح رخيصة في سبيل الواجب، الذي يتعيّن على أصحاب الهمم العالية والنفوس السامية.

ولعلّ الناظر في شعر العفيفة يلحظ بساطة الألفاظ، وسهولة التراكيب، ووضوح المعاني، الأمر الذي يجعل المطّلع على شعرها أسير عاطفتها الصادقة، هذه العاطفة التي تلفحنا من جُلّ شاعرات ذاك العصر، فهنَّ غالباً يلتزمن هذا النهج، فالسّمة الغالبة على شعر الخنساء مثلاً " إنما هي البساطة والسهولة والوضوح "[5] وهذه البساطة والوضوح أثران من آثار البيئة، وصفاء الذهن، واعتدال المزاج، وهما يدلان على عقلية هادئة مستقرة[6]. ولا تخفى بأي حال من الأحوال قوة هذه العاطفة الصادقة وهذا الأسلوب السهل، فلها ينتفض الرجال وعلى إثرها تشرّع السيوف ولأجلها تُدفع المهج، فقد " كان الشعر إذ ذاك سلاحاً من أمضى الأسلحة في حياة لا مكان فيها إلا للقوي الغالب"[7] وقد ارتبط ذاك الشعر في قبائله القديمة بالسياسة ارتباطاً جَعَلَتْهُ يحظى بمكانته المرموقة[8]، "وإذا كان الأدب يملك في داخله قوة تصحيحية مرتبطة أساساً بالقيم الإنسانية والفكرية والجمالية الكامنة في وعي الإنسان وعقله الباطن في الوقت نفسه، بحيث يلفظ الغث والمزيف والتافه في مسيرته التاريخية على مرّ العصور، فإن هذه القوة التصحيحية قد تقوم بوظيفتها الضرورية في مرحلة متأخرة أكثر من

---

(1) لسان العرب، مادة: (محن).

(2) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، القاهرة، عرض وتفسير ودراسة، د. عزالدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط1، 1955م، ص104.

(3) ينظر: شعراء النصرانية، ج5، ص126. وينظر: الأعلام، ج5، ص249.

(4) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص32.

(5) شرح ديوان الخنساء ، شرح وتحقيق: عباس إبراهيم ، دار الفكر العربي ، بيروت ط1، 1994، ص6.

(6) ينظر: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص125.

(7) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، دار المعارف، مصر، ط2، 1970، ص27.

(8) ينظر: تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني د. أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1953م، ص5.

اللازم، أو بعد أن يكون الأوان قد فات وقضى على أدباء واعدين تحت ضغوط الادعاء والزيف المتزايدة "[1].

والمدرك لأهمية تلك التجارب الإنسانية لا يدّخر جهداً للنظر فيها، ومحاولة إبراز نفائسها التي تعتبر من أهم ما يطلبه الوجدان الإنساني اليوم؛ ليعي ذاته، ويتلمّس أصوله المبتورة، أو تكاد " إن وعينا لذاتنا يقتضي حتماً أن نعرف ماضينا، وإن حياتنا اليوم لا يمكن أن تقوم إذا بترت منها أصولها، وإذا كانت دراسة التاريخ القديم للأُمّة، ضرورة لا يهون أن نتصور إمكان الاستغناء عنها، فكذلك الأدب، لا يجرؤ واع على الزعم بإمكان الاستغناء عن معرفة قديمنا منه، لا لكونه تسجيلاً وجدانياً لتاريخنا فحسب، ولكن – كذلك – لما له من أثر في تكوين ذوقنا ووجداننا ، على مرّ العصور وتتابع الأجيال"[2].

ولعل النظر في تلك الأزمنة السحيقة، وتلك الأيام الخوالي، وما فيها من أفراح وأتراح، وتحسسها عبر تلك الزفرات الحَرَّى، يجعلنا أكثر إدراكاً لذواتنا، لأن النظر إلى الحاضر مشوش بميولات وتوجهات ورغبات، أمّا ذاك الماضي البعيد، فتراه النفس في أعماق نفوس أهله، غير مقترن بالحاضر وانتماءاته ورغباته، أو المستقبل ورهباته وتوجساته، أمّا الشعر الصادق " الذي يشعرنا بأنه يعبر عن تجربة عاناها الشاعر وتناولها من زوايا طريفة، استطاع خلالها أن يحتفظ بنبضه على امتداد القرون، فنشعر بعد بذل الجهد الواجب في فهمها بنوع من التواصل الإنساني بيننا وبينه ، وأنَّ ما عبّر عنه يمكن أن يمرّ به ويعانيه فرد منا"[3] فهو في كل زمان مرشد العقول، وحكمته ضالة النفوس، التي يستعين بها على التيه في مجاهل الحياة، وعلى كُلٍ "فإنه ظلّ وسيظلّ العين الواعية الحساسة التي تعيد الاتزان إلى العلاقة بين الفرد والجماعة، بين الإنسان والكون، بين الذات والموضوع، كلما تعرض هذا الاتزان للاهتزاز أو الاختلال"[4].

([1]) دليل الناقد الأدبي د. نبيل راغب ، دار غريب للطباعة، القاهرة، (بدون ط.ت) ص4.

([2]) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر ، ص19.

([3]) قراءة في الأدب الجاهلي د. محمد عبد العزيز الموافي، مكتبة الشباب، القاهرة، ط1، 1992، ص105.

([4]) دليل الناقد الأدبي ، ص140.

الخاتمة

1. يؤكد البحث أنَّ من أسباب الانقسام والاختلاف بين القبائل العربية في العصر الجاهلي ، وقوعها بين دولتي الفرس والروم التي يحاول كل طرف منهما الاستفادة من أبناء العرب في الحماية وبسط النفوذ.
2. توصّل البحث إلى أنّ ليلى العفيفة تمثّل صورة ناصعة للمرأة العربية في شممها وسموّها وعفّتها أمام سطوة العجم وتجبّرهم.
3. أبان البحث عن أثر شعر المرأة العربية في البيئة الجاهلية.
4. يؤكد البحث أنّ التعمّق في فهم النصوص العربية القديمة بالنظرة المتأنية الفاحصة قد يضع أيدينا على كثير من المشاعر الصادقة الخفية، والعواطف الإنسانية النبيلة، التي تشعرنا بالتواصل الإنساني بيننا وبينها.
5. يوصي البحث بالخروج من ربق المسلّمات في قراءة النصوص العربية، ومحاولة مواجهة النصوص بعيداً عن تلك الأحكام التي أضفى عليها الزمن حرمةً ومهابةً، فإن حرمة قراءة النصوص ومهابتها تكمن في انسجام الصور مع الألفاظ، وتكامل الرؤى مع الأهداف، وجلاء المضامين في الغايات .

المصادر والمراجع

القرآن الكريـــم.

1. الأسس الجمالية في النقد العربي ، عرض وتفسير ودراسة د. عز الدين إسماعيل ، دار الفكر العربي ، القاهرة، ط1، 1955م.
2. أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1953م.
3. الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.
4. البلاغة العربية ، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، ط1، 1996م.
5. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، (بدون ط، ت).
6. تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، د. أحمد الشايب مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1953م.
7. تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي دار الكتاب العربي، بيروت، (بدون ط، ت).
8. تفسير ابن باديس، عبد الحميد الصنهاجي، تحقيق: أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.
9. تفسير الطبري، محمد بن جرير، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة ، ط2، 1964م.
10. الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ، د. محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة حجازي، القاهرة ، ط1، 1949م.
11. دليل الناقد الأدبي، د. نبيل راغب، دار غريب للطباعة، القاهرة، (بدون ط.ت).
12. ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1948م.
13. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام جمع وترتيب: بشير يموت، المكتبة الأهلية بيروت، ط1، 1934م.
14. شرح ديوان الخنساء، شرح وتحقيق: عباس إبراهيم ، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1994م.
15. شرح ديوان المتنبي، أبوالبقا عبد الله بن الحسن العكبري، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، (بدون ط.ت) .
16. شرح الكافية الشافية ، محمد بن عبدالله الطائي ، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، ط1، (بدون ت).
17. شعراء النصرانية، شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (بدون، ط. ت).
18. شعر تغلب في الجاهلية، جمع وتحقيق: أيمن محمد ميدان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ، ط1، 1995م.
19. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي، ط6، 1993م.

20. الشعر والشعراء ، ابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة (بدون ط) 1423ه .

21. الصحاح ، الجوهري ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987م.

22. في أدب ما قبل الإسلام، د. محمد عثمان علي ، دار الأوزاعي، بيروت، ط2، 1983م.

23. في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1، 1976م.

24. قراءة في الأدب الجاهلي ، عبد العزيز المواني ، مكتبة الشباب، القاهرة، ط1، 1992م.

25. قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، دار المعارف ، مصر ط2، 1970م.

26. كتاب العين، للفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، (بدون، ط.ت).

27. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414ه.

28. المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي، د. محمد مصطفى صوفية المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ، ط1، 1984م.

29. المحكم والمحيط الأعظم ، أبو الحسن المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.

30. معجم الشعراء الجاهليين، د. عزيزة فوال بابيتي، دار صادر بيروت، ط1، 1998م.

31. النحو المصفّى، محمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، (بدون ط.ت) .

32. النحو الوافي عبّاس حسن، دار المعارف، مصر، ط15 (بدون ت).